عنـــان

للأستاذ مراد الكردانى

كن أربع غيد عذارى فاتنات ناعمات يتحدثن ويسمرن فى مجلس خاصتهن ، وقد جئن بهنئها بخطبتها وكن أخص صواحبها

قالت حورية — وهى غرة صغيرة ، خفيفة الظل — تخاطب العروس : فعلتِها يا عنان ؟

فابتسمت عنان بفمها وعينيها ابتسامة أشرق بهاؤها وقالت فى حياء وفرح : المقبى لكن جميعاً

فاندفعت ثريا — وهى ضحاكة تحب عنان وتؤثرها — تقول وتضحك : تلك حال الدنيا يا عنان ... وكلنا لها ، فضحكن جميعاً ضحكاً حلواً مُرِنّا كالنغم الأغن . فأجابتها عنان :

— هذا عزاء يقال للمسكين الذى يبتليه الله بك يا خرقاء

... ثم لما صفا المجلس من هَذَر ثريا ومجونها أقبلن على عنان

الكتاب السرى فازداد غضباً على غضب وسكت برهة ثم انفجر باكياً وصاح يقول : «ولدى يمن ، ولدى يمن ! لقد كنت أرجو أن أراك رجلاً حتى تجاهد فى سبيل وطنك ، لكنك قد مت من أجل وأجل فتانى آه ! آه ! أين أجد بعدك لذة الحياة ؟ ! ...

ودخلت الفتاة الصغيرة مسرعة وهى تقول فى ذعر : إن السيدة لى قد أزهقت نفسها وانتحرت فى غرفة يمن ...

خَفَتَ ضوء المصباح لقلة الزيت ، فقامت السيدة الكريمة فمدته بالزيت ثم رجعت لتتم حديثها :

قبر ابنى يمن ، والسيدة لى ، كلاهما فى المعبد ، وقد قضيت أسبوعاً هناك مريضة . ولم أسمع خبراً عن زوجى منذ تلك الليلة فلا أدرى أهو حى أم ميت ! وكنت أود أن أبقى فى المعبد بعد ذهاب زوجى وأخدم السيد مين وفتاته ، لكنه رفض وترهب ، وبقيت الفتاة وحدها تخدم والدها وترعى الغنم التى كان يرعاها ابنى من قبل ... ذلك سبب ما سألتنى يا بنى . .

أليست فتاة مسكينة أيها الضيف الكريم ؟ وكثيراً ما تلقانى فتقول لى : إن الغنم بعد ما فارقها راعيها امتنعت عن الأكل وقد نفق أكثرها هزالاً ، وكلما مات واحد منها بكته الفتاة بكاء ورجونها فى شغف أن تحدثهن كيف أتم الله نعمته عليها . فبدأت تقص عليهن وقلبها يقفز من الفرح ، فتساقط الألفاظ من فمها الصغير مبتورة ضائعاً نصفها فى شهقة خفيفة ما كانت تقوى أن تخفيها من فرط ما تحس به من سرور وفرح ... ولم تفت حالها ثريا فقالت : ما هذا يا عنان ؟ ! انبتى لو رآك خطيبك لطمع فيك ولا استتمر لنفسه تلك الفرحة التى تفيض من عينيك فَتَذَلَّكِ وخضعك ... أنت فرحة أكثر من اللازم كل جارحة فيك تهتز حتى كلامك يخرج مهتزاً مدغوماً ... انظرن قلبها كيف يرقص من خلال عينيها ، ووجها كيف يضحك كله كأن قد انتخبت نائبة فى مجلس النواب أو سفيرة لبلادها ! ! خفضى عليك يا عنان فهو رجل ... رجل لا أقل ولا أكثر ...

فقالت عنان فى نشوة ظاهرة وإيمان صادق :

— اسكتى يا مجنونة اسكتى ... حين ذهب عنكن الرجل ، وحين تبيَّنتُن أنه جاد ولن يرجع ، رُحتُن تنشدن السلوى عنه فى السفارة والنيابة ... والله لو أنابوك لبحثت أنت عنه فى النواب ثم خرجت به . ما كان أجل أن يبحث هو عنك ... أما أنا فلقد ظفرت برجل يا ثريا

شديداً وأقامت له قبراً بجانب قبر ابنى ؛ فلذلك لا أظن ابنى يمن يشعر بالوحشة والانفراد ، ولن يشعر بهما أبداً !

— ٥ —

أمسيت أتقلب على السرير بعد ما سمعت قصة السيدة مضيفتى فلم أنم إلا بعد ساعات . ولما أغمضت عينى رأيت كأننى قد ذهبت إلى ذلك المعبد الرهيب ، ورأيت ذلك القبر المكتوب على حجره « قبر الفتى يمن » ورأيت حوله قبور الغنم ورأيت أيضاً تلك الفتاة التى رأيتها فى النهار فوق الجبال جاثية أمام القبر تدعو لصاحبه

ثم لم يلبث أن تحول منظر القبور إلى مسرح جميل فى وسطه فتى وفتاة عاريان يرقصان ويغنيان وحولهما قطيع من الغنم واقف وقفة الناس يرقص معهما ويغنى ، وثمت كثير من الأسد والنمور وصنوف من الحيوان ... وفجأة أبصرت إنساناً يدنو ، وفى يده سيف قاطع ، يهم أن يقتل به الفتى فأخذت عليه الطريق فأهوى على ثم استيقظت ، ولما هدأت نفسى وزال اضطرابى جلست فى فراشى أترقب مطلع الصبح حتى أستعد للسفر ؛ فما لى طاقة بعد على البقاء فى هذا المكان !

المترجم

أبو بكر هرفانجيم

فناصرت هدى — وكانت قد عنَّستْ — رأى عنان :

— ... فى زمن عز فيه الرجال يا ثريا

وكانت حورية قد تركتهن يصطخبن كما يحلو لهن ، وأعملت أسنانها فى الطبق المثقل باللذيذ من الحلوى ، حتى إذا أتت عليه رفعت رأسها وقالت لعنان ، ولا تزال تمضغ وتتمطق :

— أوَ يكون فى ليلة العرس عشاء ؟ لعله عشاء كامل مسمن ، لا أن ندور لنلتقم من كل صنف لقمة ، كأنما جئنا لنتسلَّف أو لنتقصى أنواع الطعام !

فالتفتت لها ثريا ودارتْ عينُها لما رأت الطبق فارغاً ، ثم نهضتْ فضربتها وجعلت تدسُّ لها الطبق فارغاً فى فيها تريدُها أن تمضغه هو الآخر . فانفجرن جميعاً ضاحكات ، ونهضتْ عنانُ فعوضتهن وأجزلت

قالت هدى لعنان وكانت أشغفهن بسماع الحديث :

— حدثينا كيف ظفرت برجلك ولا تلتفتى للمجنونة ولا للمنهومة ...

فقالت عنان :

— والله إن الأمر يا هدي عجبٌ من العجب ، لعله لا يصدق أو لعله هيِّنٌ نادر ، ولكنه وقع لى على أى حال ... كان جالساً بجوارى فى مركبة عامة لا أعرفه ولا يعرفنى ، فلفتَ فىَّ فقبَّلنى فى زحمة الناس وعلى عيونهم ! ثم تبعنى لما نزلت ... ثم جاء يخطبنى !

فشُدِهْن كلهن ، وشاع فيهن حنين خفيف ، وثارت فيهن أنوثتهن المحرومة والمنتظرة ... فأصغين إليها وأقبلن عليها وهى تفصِّلُ ما أجملت :

— كنت أترقب السيارة الصاعدة إلى « مصر الجديدة » وكانت الزحمة بالغة ، وتدافع الناس على باب الدرجة الأولى . فهدانى ربى أن أدلف إليها عن طريق الدرجة الثانية ، ولكنى — وقد استويت راكبة — عجزت أن أبلغها ، فوقفت أهتز وأتدافع وسط الرجال . فتضاغطَ الجالسون إلى يسارى ووسعونى ، فجلستُ خامسة فى مقعد يسع أربعة وكان هو إلى يسارى يتأملنى ويختلسنى بأطراف عينيه . أجفاه فيغض ، ثم يعود فأعود ... ولما شعرتُ بدقِّ قلبه . إذ كان جسمه لصق جسمى تركته فلم ألفتْ نحيه ... ثم بدا له أن يرسل عينه فى الطريق من ناحيتى فى نفس اللحظة التى بدا لى فيها أن أرسل عينى أنا الأخرى من ناحيته . فَرَفَّ شفق بشفتيه ! وتلاقت عيناناً فى نظرة داهشة ثم عاتبة وغاضبة . وكانت قبلة ضاعت حلاوتها فى حرَّة الخجل التى تنفَّشتْ فىَّ فأطرقت مضطربة محمومة

لم أدر ما حدث بعد ذلك ولكنه خبَّرنى . قال وهو بعيد الذكرى على سمعى :

... لم أستطع أن أواجه أعين الناس . وحنقت على نفسى أشد الحنق ، وأحسست أن الدم قد تصعد وفى ...

وأمسكت عنان عن حديثها بغتة لأنهن لفتن نحو الباب ففوجئن — ما عدا عنان — برجل يقتحم عليهن فألفينه شاباً موفور الشباب رائع الرجولة ، فجأت رجولته أنوثتهن فتمنَّينَه ، وثار عليهن نقصهن فتبطن عنان التى وجدت كالها

ونهضت تقدمه لهن وتقدمهن له ، فرحب وهو يبتسم ويجلس جنب عنان جلسة يزحمها بها ، كأنما يعاود على فؤاده منها ذكرى اللقاء الأول والقبلة الأولى . فتضاحكن من ظرفه ومن جلسته ثم اندفع هو مستطرداً كأنه الذى كان يتحدث :

— لقد حنقت على نفسى وأحسست الدم ...

فشرعت فيه عنان عينيها ، فغضَّ ، فقالت :

— من غير إذن ... ! ثم من أدراك أنهن يسمعن لك ؟

فقال : من التوفيق وحسن الحظ أنى أقبلت حين بدأ الحديث يكون عنى ، أعنى فى شأنى ، فأنت التى يجب أن تتأذنى ، لأن الذى حنق هو أنا ، ودمى أنا — لا دمك أنت — هو الذى تصعَّد فى وجهى وفى قنة رأسى فجعل يخزنى كأن إبراً تتوالى على صفحة وجهى وفى هامتى ، فجعلت أتحسس مواضع الوخز وأنا مطرق لا أجسر أن أرفع ، ولكنى عدت فاختلستها — وهى مطرقة مثلى — فرأيت الوجه الجميل قد تورد كله . ثم تجمع ورده وزكا فى الخدين فوهجا وأضاءا . فسلبتنى روعة حياتها قسوة حيائى . فلم أعد أحفل بالناس ، إذ لم يعد فى وسع عينى ولا فى أقطار نفسى سواها

ثم تكشفت على فؤادى من عينيها — لحظة شرَّعتهما فىَّ — فتنة جديدة أشد وأروع كانتا مسبلتين فنجلتهما فى ، فكأنما — والله — سلت الأهدات الطوال المشرعة فى كبدى فسيَّلتها !

لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك . فهامستها — من غير وعى وأنا لا أعرفها — أن من الأوفق أن ننزل ...

فقطعت عنان حديثه قائلة فى تمايه ودلال :

— كنت وأياه كوسيط مسحور يصرفه المنوم كيف شاء

فقال أأذنت لك أن تقاطعيني . اسكتي . فهذا حديث كبار

فبسمن جميعاً وعاد يقول :

— نزلنا ولم يبلغ واحد منا وإنما هربنا من فضول الناس . لم ندر كيف ، ولم تدر هي كيف أطاعتني . فكلانا ذاهل غائب فتى يقبل فتاة لا تعرفه ولا يعرفها في جمع الناس وعلى عيونهم ثم ينهضان معاً ... إن هذا لشيء عظيم !

ولبثنا وقوفاً زماناً ثم جمت بدد ذهني قليلاً حين دار في أذني سبابها خفيفاً حلواً يتندى على فؤادي كحبات الماء على جبين محموم .

وقلت: إنها غلطة يا آنسة وإنها — ولا يد لي فيها — لأحب إلى نفسي من عملي كله

فعبس فما ... فما فقط ... عبسة أشهد ما رأيت أحلى ولا أروح منها ، وعاد سبابها المعذب يتوثب حول شفتيها ثم يتسامى إلى قلبي نغماً تصيراً رقيقاً يحمل في وهن رقته قوة فتائه ...

فابتسمت ثريا وقالت :

— مرحى . مرحى . هذا منطق عاشق يسمع بقلبه سباب حبيبه نغماً كحباب الكأس ما تسمو واحدة حتى يعاجلها فناؤها الكامن فيها

فأمن على تشبيهها واستطرد عليه يقول : أي والله يا ...

ونسي فأدركته عنان قائلة ... يا ثريا

— أي والله يا ثريا إنه لكذلك على فؤادي كان يوقظ حنينه ولا يشبعه ! ولكنه لم يكن سباباً . إنه — يا آنسة — غضبةُ جمال شقّ عليه أن يُمتَهن على أعين الناس

وكانت إفاقتي على حلو سبابها ردة على جمال جديد تجلى على فؤادي من قوامها المعتدل سحرتني وحيرتني فلم أدر أيّنا أطيل فيه النظر ولا أيّنا أقصر عنه ... كانت فتنة مجسدة ، وكنت من فمها وحده بين ثلاث فتن : أكبرها وأقتلها أنني قبلت هذا الفم وأوسطها أنني نعمت به حين عبس فبدا بشفتيه — العليا على السفلى — كفراشة حمراء قانية بسطت جناحيها الصغيرين ثم نامت على لفة وردة تترشف رحيقها . . . وأنني سحرت حين ترسّل على فؤادي منه نغم حبيب . وأهونها — وتلك من عجائب القلب — أنني فزت بعد ذلك برضاه . . . إنه حلو فاتن حين يرضى ، وإنه لأحلى وأفتن حين يعبس

فضحكت ثريا وقالت :

— الأمر بيدك ... اغنم لنفسك الأحلى !

فقال وهو يبتسم : هذه أمانيةٌ يا آنسة !

وقالت عنان تُتمم الحديث من حيث قطعته ثريا :

— ... وفرغ سبابي قَدَّ إليّ يده في ضراعة وقال لي :

— إنه خطأ هين ، وإني لمصلحٌ ما كان بجمال ما سيكون ، ولذلك لن أعتذر ، وعاد هو يتم لها :

— ... قلتُ لها : ولذلك لن أعتذر ؛ فعقدت حاجبيها وتغضّبت بعينيها ، ولكنها ابتسمت على رغمها ابتسامة كانت تمنعها جُهدها وتخفيها ، ففهم قلبي معاني قلبها ، وناجت روحها روحي ، وانسرقتْ حواسها بجملتها على غفلة منها فألقت في حواسي رسالة فرحتُ بها فاتزنت واطمأن قلبي

وجاءت سيارة فقفزت إلى الدرجة الأولى لتواصل طريقها وقفزت أنا في الدرجة الثانية ، ولما نزلتْ هي نزلتُ أنا وتحاشيتها وعرفتُ من بُعدٍ منزلها ... ثم ... ثم اقتحمت على أبيها فأسعدني وأسعدها

فبسمت عنان ابتسامة أشرقت في قلب خطيبها هذه المرة ، وقالت في دلال وتخابث : في «وأسعدها» بحثٌ وكلام

فأخذ وجهها بين يديه وقبّلها على مرآى منهن قبلة عاجلة وهو يقول :

— لا كلام ولا حديث لقد ظفرت بالدنيا يوم ظفرت بك يا عنان

وخرج يجري فاتزاً بقبضة يده تهوي على ظهره جزاء ما فعل

— أما هن — كان الله لهن — فقد تخاجلن وتضاحكن . ثم نظر بعضهن إلى بعض ، وقمن لينصرفن . فقالت لهن والدنيا لا تسعها : إنه خفيف الظل وأنا أعبده

فقالت ثريا :

— إنه رجلٌ يُتمنّى يا عنان ، وإنه لحقيق أن يحبّ ويعبد ، لو كنتُ مكانك . . .

وعَنّ على السكينة أن تزيد . فجرّتْ هدى وزاملتها وأرسلتا — حين صارتا في الطريق — زفرة حارة ، وزادت هدى أنّ عبرة فرّت منها برغمها

وقالت ثريا :

— تعالي يا هدى نركب الدرجة الثانية من سيارة مزحومة وبعداً — منذ اليوم — لسيارتي وللدرجة الأولى ... ولنحرص كل منا أن تجلس — منذ اليوم أيضاً — خامسة في مقعد يسع أربعة ... لعل وعسى ...

سرار الكردلي

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين